

THE ARABIC PROPHET - THE MERCIFUL FOR THE WORLD AND THE TEACHER FOR HUMANITY, FROM PERSPECTIVE OF HIS LANGUAGE AND LITERATURE.

الرسول العربي رحمة للعالمين و معلّمًا للإنسانية في منظور لغته و أدبه

عبد الوهاب سلطان عضو رابطة الأدب الإسلامي (الرياض، السعودية)

قاري بدر الدين الأستاذ قسم اللغة العربية بجامعة الأردنو الفيدرالية كراتشي.

ABSTRACT: This article aims to modify the mercy of The Arabic Prophet (صلى الله عليه وسلم) and being a Teacher of humanity from the perspective of his language and literature. It has been pointed out through many witnesses from the Ahadees (Sayings of Beloved Prophet (صلى الله عليه وسلم)) that The Beloved Arabic prophet was sent as mercy and teacher for humanity, not only in his message, but in his language and literature as well.

KEYWORDS: Arab Prophet, Mercy for Mankind, Teacher of Humanity, Language of Prophet, Etiquette of Prophet.

الكلمات المفتاح: الرسول العربي، رحمة للعالمين، معلّمًا للإنسانية، أدب الرسول العربي (صلى الله عليه وسلم).

الحمد لله الذي رفع قدر العربية، و أعلى شأنها، و أنزل بها ((و أوحينا إليك قرآنا عربيا))، والصلاة والسلام على الرسول العربي، خير من نطق بالضاد، وافتخر بانتسابه إليها وهو سيد الأولين و الآخرين حين قال فيما أخرجه الطبراني في معجمه من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: " أنا أفصح العرب، بيد أي من قریش " والذي بُعث رحمة للعالمين. و على آله و صحبه الذين بلغوا رسالته إلى كافة أنحاء العالم بروحها و لغتها و طبيعتها فكانوا بمزاياهم الأدبية و خصائصها العربية خير محل لهذه الرسالة و خير داعية إليها. أما بعد:

مع انبثاق فجر الرسالة المحمدية-على صاحبها الصلاة و السلام- التي بُعثت رحمة للعالمين بدأت مرحلة جديدة في حياة اللغة العربية. فاللغة العربية التي كانت في معظم أدوار العصر الجاهلي تقطر دما، و تتنفس فتكا و قتلا و دمارا، لا تمجد إلا رحما و سيفا، و لا تصف إلا مشاهد قتال و حروب و صراعات طاحنة مستمرة، لا أول و لا آخر -بدأت تستمد اليوم من إشراقة هذه الرسالة النبوية الرحيمة رؤية جديدة ملؤها الرحمة و الإنسانية و الرأفة و العطاء و البذل و البرّ و الكرم و الخلق الكريم و ما يرادف ذلك في قاموس المعاني الإنسانية من كلمات النبل و الكرامة .

اللغة العربية و طبيعتها قبل بعثة الرسول العربي :

أما طبيعة اللغة العصبية و الدموية في عصرها الجاهلي فإن الذي يتابع مسيرة اللغة العربية في عصرها الجاهلي يُدرك ذلك بوضوح و جلاء. و الأمثلة على ذلك كثيرة طفحت بها مكتبة الأدب العربي الجاهلي بأيامه و أخباره، سواء في شعرها و نثرها.

ولقد أحسن العلامة الداعية الأديب أبو الحسن الندوي تصوير المجتمع الجاهلي العصبي الدموي تصويراً قوياً ، يقول: " وكانت العصبية القبلية الدموية شديدة جامحة، و أغرموا بالحرب حتى صارت مسالة لهم و ملهى، و هانت عليهم إراقة الدماء، فتثيرها حادثة تافهة، و تدوم الحرب أربعين سنة، و يقتل فيها ألوف من الناس"¹

ومن هنا يقول أحد الشعراء الجاهليين ما يعكس طبيعتهم المولعة بالحروب و المطبوعة بالغزو و الغارات إلى حد القساوة،

يقول: وأحياناً على بكر أحنينا إذا لم نجد إلا أحنانا

ويقول آخر، و هو عباس بن رأس سلمى في أيام الجاهلية :

فحارب فإن مولاك حارد نصره ففي السيف مولى نصره لا يحارد

ويقول سعد بن مالك الشاعر الجاهلي في تحد و شدة :

كشفت لهم عن ساقها و بدا من الشر الصراح

من صد عن نيرانها فأنا "ابن قيس" لا براح²

هذا قليل من كثير، و من يطالع حروب "البسوس" و "داحس" و "الغبراء" في الأدب العربي الجاهلي يشعر من خلالها و لكأنما الحياة الجاهلية العربية-و كما وصفها العلامة الندوي- " شبكة محبوكة من ترات و ثارات فشت حبالها في القبائل و أوصى بها الآباء الأبناء،....حتى كانت كفة الجزيرة كفة حابل لا يدري الإنسان متى يغتال و أين ينهب..."³

فاللغة العربية التي نشأت في ظل هذه العصبية الدموية الغارقة في العدا و القساوة حتى النخاع لم يكن لها بدّ من أن تستلهم منها غير روح القتل و النهب و الفتك و الطمع و الجشع، مع الاعتراف بالمميزات و المحاسن الخلقية الأخرى التي لا يمكن تجاهلها و التهوين من شأنها.

اللغة العربية بعد بعثة الرسول العربي صلى الله عليه وسلم، رؤية جديدة و مرحلة جديدة:

و عندما أشرقت على هذا المجتمع الجاهلي شمس الرسالة المبعوثة رحمة للعالمين ، -حدثت تغىرات في كل مناحيها، و حتى في طبيعته لغته و أدبه و أساليبه البيانية. فاستلهمت اللغة العربية من وحي هذه الرسالة

المبعوث رحمة للعالمين لغةً التأخي والتراحم والتعاون والتحابب والتسامح والتآلف وكل أنواع التفاعل الإنساني المعروف.

تماما كما صور القرآن الكريم هذا المعنى تصويرا جامعا ورائعا وجميلا حيث قال: {وَأَلَّفَ بَيْنَ فُلُوحِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ فُلُوحِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} 4
رسالة الرحمة والإنسانية كانت بحاجة إلى لغة الرحمة والإنسانية :

وكان هذا طبيعيا أن يحدث في هذه المنعطف التاريخي العظيم. وكان من البديهي أن تأخذ اللغة العربية هنا طورا جديدا من البيان وتكتسب حلّة جديدة من التعبير. لأن الرسالة التي بعثت رحمة للإنسانية جمعاء كانت بحاجة إلى لغة جديدة تتلاءم مع روحها وطبيعتها وإلى لغة تتناغم مع ذوقها وفطرتها. ولتعبّر عن بعثة الرحمة الإنسانية بأكمل معانيها وأوقافها وأبلغها.

رحلة اللغة العربية مع رسالة الرسول العربي صلى الله عليه وسلم:

بدأت اللغة العربية رحلتها الجديدة مع الرسالة الإسلامية المحمدية، أضافت إليها هذه الرسالة من خلالها رصيدا لغويا وأديبا من المعاني الإنسانية والمفاهيم الأخوية الكريمة، والمشاعر الرحيمة النبيلة. وضخت في قلبها روحا جديدة تحبّ الأمن والسلام والخير والرحم والوصل وكل ما يخدم مصلحة الإنسان وإنسانيته.

مظاهر الرحمة وتعليم الإنسانية في لغة الرسول العربي صلى الله عليه وسلم :

المظهر الأول :

تبدأ هذه الرحلة من أول منطلق من منطلقات هذه الرسالة العالمية. عنوان رسالة الرسول العربي المبعوث رحمة للعالمين ينبغي أن يأتي متوافقا مع رسالة رحمته العالمية. فاختارت أبلغ كلمة تعبّر عن معنى الرحمة والإنسانية، لتكونا عنوانا اصطلاحيا لهذه الرسالة. وهي كلمة "الإسلام" فأعظمّ ببلاغتها الرحمية وسموها الإنساني وحدث عن البحر ولا حرج.

حيث تمّ نحتها واشتقاقها من مادة "السلم" أو "السلام". وجرى هذا المعنى في سائر مشتقاتها ودلالاتها. ف"المسلم" يعني الحامل لهذه الرسالة الإنسانية العالمية. وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه التسمية بوضوح وبلاغة، قال: {هُوَ سَمَّاكَ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا} 5

كما أوضحها الرسول العربي صلى الله عليه وسلم بوضوح أكثر ولكأنما يلفت أنظار "المسلم" إلى هذه الرسالة الإنسانية "السلامية" -إن صحّ التعبير- التي يحملها اسمه وعنوانه، يقول الرسول العربي صلى الله عليه وسلم فيما أخرجه البخاري في صحيحه عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده)) 6

عنوان آخر من عناوين الرحمة والإنسانية في رسالة الرسول العربي:

ويتلو هذا العنوانَ الرئسي لبعثة الرحمة المحمدية عنوانُ رءىسي آخر في مثل قوته و دلالاته التعبيرية عن محتوى هذه الرسالة التي بُعثت رحمةً وإنسانيةً، و هو كلمة " الإيمان"، وصاحبها " المؤمن". و هو مصطلح إسلامي متعدد الدلات و المعاني و المفاهيم كما ذكرها اللغويون. و لكنها تلتقى جميعا على مادة " الأمن" التي تم اشتقاق هذا المصطلح منه. و قد ترجم الرسول العربي صلى الله عليه وسلم عن هذا المعنى هو يربط هذا المصطلح بمحتوى رسالته الإنسانية المبعثة رحمةً للعالم، ففيما أخرجه ابن ماجة في سننه عن فضالة بن عبيد أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((المؤمن من آمنه الناس على أموالهم وأنفسهم))⁷.

وتبرز قوة هذا المصطلح العربي الإسلامي الذي يفرض على حامله-المؤمن- أن يحقق هذا المفهوم عملياً على واقع الأرض في سياق تأكيد و شبه حصري، و بالتالي فإنه يوحي أن الذي لا يأمنه الناس على أموالهم و أنفسهم لا يحقق له أن يتسمّى بـ " المؤمن".

اهتمام الرسول العربي بإثراء اللغة رحمةً وإنسانيةً:

وهكذا و بهذا الاهتمام البياني الرائع بدأ الرسول العربي صلى الله عليه وسلم يُضَيِّف إلى رصيد اللغة العربية منذ انطلاقة رسالته الأولى ثروة لغوية ضافية تعبّر عن مفاهيم الرحمة الإنسانية التي اختصت بها في عناوينها الرئيسية التي اصطلحت رسالة الرسول العربي صلى الله عليه وسلم عليها، لتطلع على العالم رافعة راية السّلام و هتاف الأمن.

توظيف البُعد الإنساني في اللغة عند الرسول العربي صلى الله عليه وسلم:

ولا يدور اهتمام الرسول العربي صلى الله عليه وسلم في فلك المصطلح الإسلامي فحسب بل يعدوه إلى عامة مظاهر اللغة العربية و أسمائها و دلالاتها الشائعة في المجتمع الإسلامي. و نجد في أحاديثه صلى الله عليه وسلم أمثلة و نماذج رائعة تمثّل عنايته صلى الله عليه وسلم بتغيير الأسماء و العناوين و الأمثال و المصطلحات و يستبدل لها بدائل أخرى هي أقرب إلى معاني الرحمة و الإنسانية التي تكوّنت منها حمة رسالته صلى الله عليه وسلم و أكثر دلالة على هذا البُعد الإنساني النبيل الذي يبعث التفاهل و يبشّر بالخير و يحفّز على الكرم و العطاء.

المظهر الثاني من مظاهر الرحمة و تعليم الإنسانية في لغة الرسول العربي:

منها-على سبيل المثال- تسمية " يثرب" بـ " المدينة" المنورة. حيث أخرج البخاري في صحيحه فيما رواه أبوهريرة - رضي الله عنه - يقول قال رسول الله: ((أمرت بقرية تاكل القرى يقولون يثرب وهي المدينة تنفي الناس كما ينفي الكبر خبث الحديد))⁸

وهو في الواقع تغيير عميق يتصل أحد طرفيه بزمام اللغة العربية و ثانيه بزمام النفسية الإنسانية التي تتأثر بطبيعتها من دلالات الأسماء. فلما كانت كلمة " يثرب" على عربيّتها تحمل شمة من معاني الشر والهلاك، و

كان من الطبيعي تأثر النفوس الإنسانية بهذا الاسم، أزالها الرسول العربي صلى الله عليه وسلم من قاموس اللغة العربية الإسلامي.

وأحل محلها كلمة ذات دلالة راقية و شاملة لعدة أبعاد لغوية و أدبية وثقافية تجعلها أقرب إلى البعثة الحمديّة و أشمل دلالة على محتواها. فكلمة " المدينة" فضلا عن دلالتها اللغوية الصادقة و المطابقة لمدلولها، تحمل أبعادا أعمق منها، وهي أبعاد " المدينة" و " التمدن" و " التعايش المدني" و ما إليه، و التي تنتحلها اليوم الجهات التي تسمى فيما تسمى " الدول المتقدمة" و " الراقية" و " الحضارية" لحين أن الرسالة الحمديّة هي التي أرست دعائمها منذ أول يومها حتى سمّت معسكر رسالتها الأول باسم " المدينة" إحياء بهذا المعنى الإنساني العظيم.

نموذج آخر في هذا السياق:

وتأتي في هذا السياق كلمة أخرى لتسمية هذا المركز الإسلامي الأول الذي انطلقت من الرسالة الحمديّة. و نجد في بعض الروايات ما يدلّ كيف أن الرسول العربي صلى الله عليه وسلم يختار لها من الكلمات أفضلها و أجملها و أطيبها، و هي كلمة " طابة" لتضفي على مدلولها معنى إنسانيا لطيفا يتفق و طبيعة رسالته المبعوثة رحمة للعالم بلغتها و أدبها فضلا عن مدلولها و محتواها.

ففي ما أخرجه البخاري في صحيحه عن عن أبي حميد - رضي الله عنه -: ((أقبلنا مع النبي من تبوك حتى أشرفنا على المدينة فقال هذه طابة (طابة))⁹
أثر هذا التغيير على لغة المجتمع:

ولم يكن ذلك مجرد تعبير عن شعوره. بل أخذت هذه الدلالات الجديدة رواجاً في لغة المدينة المنورة و أدب أهلها. و جرت في شعرها و نثرها مجرى سائر الكلمات.

ومن ثم نجد ذات الكلمة عند أحد شعراء الصحابة رضي الله عنهم و هو يستخدمها في بعض أبياته عن دعوة الرسول العربي صلى الله عليه وسلم كأنها هي الكلمة المعروفة بينهم، حيث يقول فيها: فلمّا أتانا و استقرّت به النوى و أصبح مسرورا ب" طيبة" راضيا¹⁰ يعني ب" طيبة" المدينة المنورة.

المظهر الثالث من مظاهر الرحمة و الإنسانية في لغة الرسول العربي صلى الله عليه وسلم:

ونجد ثمة مظهرا ثالثا من مظاهر هذا الإصلاح اللغوي في كتب السنة و السيرة و الذي يهدف إلى توظيف المعنى الإيجابي الإنساني في الكلمات العربية. و هو يتمثل في إحلال كلمة " العشاء" محلّ كلمة " العتمة". فقد كان العرب الأنصار قبل الهجرة يستعملون " العتمة" للعشاء. و كانت تحمل رائحة سلبية لدلالاتها على " الظلمة" و " الظلام". فاستبدلها الرسول العربي صلى الله عليه وسلم بكلمة " العشاء".

ولا زالت هذه الأخيرة هي الكلمة التي يستعملها العرب المسلمون وغيرهم للتعبير عن معنى " العتمة" السابق. و لنقرأ القصة بلفظها فيما أخرجها المسلم في صحيحه عن بن عمر قال "قال رسول الله صلى الله عليه وسلم * لا تغلبنكم الأعراب على اسم صلاتكم العشاء فإنها في كتاب الله العشاء وإنها تعتم بحلاب الإبل"¹¹ ويتجلى فيه اهتمام الرسول العربي صلى الله عليه وسلم الكبير باتخاذ المصطلح الإسلامي الإيجابي، حيث نوّه باستخدام كلمة "العشاء"، و حذّر في الوقت نفسه من أن تغلبهم لغة الأعراب السلبية في خصوص هذه الكلمة.

أثر الوحي السماوي في الإصلاح اللغوي :

وبحكم كون اللغة العربية لغة رسمية في السماء-إن صح التعبير- فإن هذه التغييرات الإيجابية لتأصيل المصطلح الإسلامي كانت تتم في السماوات و منها تأتي إلى الأرض. و قد ورد في بعض الروايات الحديثية ما يعزوا هذه التسمية إلى الله سبحانه و تعالى.

ففيما جاء في " مشكل الآثار" للإمام الطحاوي (م321هـ) رحمه الله تعالى ما يعزّز هذا الاتجاه كالتالي : "الأمر الذي كانت العرب تعرفه في اسم هذه الصلاة أنه العتمة لا العشاء، وكان السبب في تسميتها إياها ذلك الاسم ما قد ذكر في حديث أبي سلمة عن ابن عمر الذي ذكرناه في أول هذا الباب حتى أنزل الله عز وجل على رسوله:

{ يا أيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم والذين لم يبلغوا الحلم منكم ثلاث مرات من قبل صلاة الفجر وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة ومن بعد صلاة العشاء ثلاث عورات لكم } [النور: 58] فصاروا إلى اسمها الذي سماها الله عز وجل به في هذه الآية، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم"¹² إشكالية و الإجابة عنها:

وهنا تظهر إشكالية ربما تفرض نفسها على الذهن ، و مفادها أنا نجد حتى في صميم الشعر العربي الإسلامي ما يفيض حربا و حماسا، و يشعّ قتلا و جهادا. فقد كان عند الشعراء الإسلاميين في العصر الإسلامي من أمثال حسان بن ثابت و كعب بن مالك و عبد الله بن رواحة رضي الله عنهم أشعار قوية حماسية لمقارعة شعراء المشركين. و لكن هذه الإشكالية لا تصح في هذا المقام. فإنهم في واقع الأمر لم يقولوها ليدافعوا عن أنفسهم أذى فرديا نالهم من المشركين بل ليدفعوا عن المجتمع الإسلامي الفتي الناشئ إيذاء المشركين و افتراءاتهم. وهنا كانت اللغة العربية هي الأخرى تجلت في صيغتها الشعرية لتجسّد مفهوم التراحم و التلاحم و التناصر الذي دعا إليه الرسول العربي صلى الله عليه وسلم فيما أخرجها المسلم في صحيحه عن النعمان بن بشير قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

((المسلمون كرجل واحد إن اشتكى عينه اشتكى كله وإن اشتكى رأسه اشتكى كله))¹³

كلمة الختام :

و قد تبلورت من خلال النماذج و الأمثلة المذكورة أعلاها و ما عداها مما توارد في كتب السنة و السيرة شذّر مذر أن اللغة العربية كانت موضع اهتمام خاص للرسول العربي صلى الله عليه وسلم. و فضلا عن جوامع كلمه و سنته و أحاديثه و خطبه العربية الخالدة شبه المعجزة التي كانت و ظلت و لا تزال عمادا أساسيا للأدب العربي الإسلامي فقد كان يخدمها و يثري مادّتها بتحريّ البدائل العربية التي تخدم مصلحتها بشكل أفضل. و غالبا ما تغلب على هذه الاستعمالات العربية البديلة التي وضعها الرسول العربي صلى الله عليه وسلم طابع الرحمة و سمة الإنسانية. و بالتالي تترقق من خلالها شخصية رسول عربي بعث رحمة للعالمين و معلّما للإنسانية ليس برسائلته و دعوته فحسب، بل بلغته و أدبه كذلك.

الهوامش:

¹ أبو الحسن علي الندوي، السيرة النبوية، للعلامة أبي الحسن الندوي، ص: ٤٠، المطبعة العصرية للطباعة و النشر، لبنان، بيروت، رقم

الطبعة غير متوفر

² ديوان الحماسة في الشعر الجاهلي

³ أبو الحسن الندوي، ماذا خسر العالم بالخطأ المسلمين، ص: ٦٢، مكتبة الأيمان، مصر، رقم الطبعة غير متوفر

⁴ القرآن الكريم، [الأنفال: 63]

⁵ القرآن الكريم، [الحج: 78]

⁶ صحيح البخاري-نسخة طوق النجاة - (1 / 13)

⁷ سنن ابن ماجه - (2 / 1298)

⁸ صحيح البخاري-نسخة طوق النجاة - (1 / 13)

⁹ صحيح البخاري-نسخة طوق النجاة - (1 / 44)، باب المدينة طابة (طابة)

¹⁰ حياة الصحابة للعلامة يوسف الكاندهلوي رحمه الله تعالى

¹¹ صحيح مسلم - عبد الباقي - (1 / 445)

¹² شرح مشكل الآثار - (3 / 30)، الإمام أبو جعفر الطحاوي، طبع مؤسسة الرسالة مصر. الطبعة الأولى (1415 هـ ، 1494 م)

¹³ صحيح مسلم - موافق لترقيم عبد الباقي - (4 / 2000)